



تشكل هذا المبحث من أربعة عناصر على ما تستقى من عنوانه وهي: الحوار والمناهج والتحليل والخطاب. وبالوقوف عند كل مفردة بالوصف والتحليل والتعليل والرأي يتبين ما بين هذه العناصر من تفاعل وتأثير في مجال التشكيل والتحليل وما يتولد منها في معالجة الخطاب اللساني. وأول هذه العناصر الحوار.

الحوار

الحوار منطوق لغوي قديم قدم تراثنا العربي، ثلاثي التركيب من حور، وفيه قال ابن فارس: (الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً)¹ ويهمننا الأخير الذي أوضحه صاحب اللسان بقوله: (والمحاورة المجاورة، والتحاوور التجاوب)² وكلاهما اتصال وتواصل لما فيهما من تجاوب بين عنصرين، وما ينبغي أن نشير إليه أن التحاوور هنا معنوي، وأن المتحاوور هو الإنسان مع الإنسان بشروط وأعراف، وما ينتج عن العملية التواصلية بينهما يسمى حواراً إذا التزم طرفا حلقات التواصل بضوابط الحوار وآدابه.

وقد حصر المختصون ضوابط الحوار في تسع نقاط أهمها (المباشرة في الحديث واستبعاد الفرضيات، وأن يكون للمحاوور رقيب ومرجعية، وأن يمتلك المحاور أسلوباً حسناً)³ كما أن للحوار آداب تراعى منها، الإمام بموضوع الحوار مع وضوح الألفاظ عدم إسقاط الآخر وعدم التعصب للرأي وإبداء الرأي للآخر وإيضاحه⁴ مع مراعاة المواقف والحالات.

منهجية الحوار

نسبنا الحوار إلى المناهج وأضفناها إليه لما بينهما من علاقة متينة وطيدة في مجال البحوث اللسانية، ذلك أن الباحث يمر بمراحل ويقطع أشواطاً في إنجاز بحثه الذي جعلناه هنا منقسماً بين طرفي حلقات التواصل اللغوي، هذه الحلقات التي يتبادل فيها كل من المرسل والمتلقي وظيفة الإرسال والاستقبال معاً، فيها يتحول المرسل إلى متلق والمتلقي إلى مرسل، يتحول المتكلم إلى مستمع منصت والمستمع إلى متكلم مرسل. وهذا طبيعي عند التقاء عنصرين راغبين في التواصل أو ملتقين من أجله، ولكن ما يحصل فيه الاختلاف هو مدى الالتزام بقواعد الاتصال وقوانينه ومراتبه ودرجاته ومستوياته، وكل ذلك يعرف بالمنهج.

المنهج

المنهج كصنوه الحوار قديم في تراثنا، معروف في آثار الباحثين العرب من قدماء ومحدثين، وعرفه صاحب المقاييس على غرار سابقه فقال فيه: (النون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النهج، الطريق. ونهج لي الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهاج)⁵ وإن كان الأصلان متباينين، في نظر صاحب النص؛ فهما عندنا متكاملان مادام فحوى المنهج، هو وضوح واستقامة، وذلك ما نرتضيه نحن ونبغيه. المنهج والمنهاج معاً. بالصورتين. قياسه آلي، فهو كالمثقب والمثقاب، وهو مصدر ميمي، ويجوز في فتح الميم وكسرها. ويستفاد من حالات هذا المنطوق، أن فيه ليونة ومطاوعة، لما فيه من قابلية (المد والقصر، والفتح والكسر) وليست تلك الليونة والمطاوعة اعتباطية وإنما هي تلوينات صوتية لتنوعات معنوية؛ ففي تلاقي المناهج تلاقي أفكار، وتوضيح مواقف، واستبطان خفايا النفوس وخباياها، وذلك في علاقة الانتساب الذي

هو النقد وفي مجال التحوار الذي هو الخطاب، وعند كل منهما نقف وقفة متأنية في ما هو آت.

النقد/المنهج النقدي

النقد في مفهوم البحث العلمي غير الانتقاد، مع اقترابهما من بعضهما وتشابك الخيوط في نسجهما. وما يتميز به كل منهما، أن للنقد ضوابط واعتبارات عقلية منطقية ولانتقاد خلفيات وشطحات عاطفية. وللجميع مكان ومكانة في البحوث والدراسات. والبحث باعتبار مسلكه وسلوكه، أنواعا منه ما هو علمي في منطلقاته وتوجهاته تجريدي في تصورات، متحقق من نتائجه، ويسمى الرياضي. وآخر منه ومثيله في التصور والتجريد، ولكنه غير دقيق النتائج، ويسمى الفلسفي. وثالث يقف بينهما مستمدا منهما يسمى النقدي. والنقد وسط بين التصور العلمي المقعد الدقيق المسالك المتحقق الغايات وبين التصور الإنساني الواسع المجال المغرق في الخيال.

ومن هذه النظرة الوسطية النقدية تنطلق الأحكام ذات الطابع العلمي الوسطي أيضا، أحكام صادرة عن حكماء غالبا لا عن حكام؛ ويتجلى لنا ذلك في مجمل الآراء النقدية التي كانت تبديها العرب في احتكامها للشعر. جيده ورديئه. آراء يحكمها الذوق والانطباع، وخالية من التفكير المنظم الذي يترتب عنه التحليل والتعليل والاستنباط. وظلت كذلك إلى غاية القرن الثالث حيث انتقل النقد من مجرد انفعال عاطفي إلى فكر نقدي تمثل في ظهور عدة مصطلحات نقدية مثل: الفحول، الصنعة السرقات، الطبقات، اللفظ والمعنى... وغيرها من الجهود النقدية الدالة على تطور النقد ونموه، ليس هذا موضع التفصيل فيها⁶

ولما كانت آراء الباحثين والمختصين والمهتمين متفاوتة ومتباينة أحيانا، كانت النظرات النقدية كذلك، وفي اختلافها وتفاوتها متسع للنقاش والحوار وإبداء الرأي وفيها

تطوير وتنويع للعمل الإنساني، وفيها تمديد وتحديد لكل نتاج إنساني في جانبيه الفكري والعاطفي.

لقد قامت دراسة الأدب على مجموعة من المقولات الأدبية تمثلت في علاقة الظروف الاجتماعية والنفسية والتاريخية بالعمل الأدبي. وظلت هذه المقولات مهيمنة على المناهج النقدية. وأصبح كل (ما يربط بين هذه الدراسات المنهجية ويوحدها مهما اختلفت مشاربها وتنوعت منازعها هو نظرهما للعمل الأدبي كصورة لاحقة، أو مرآة عاكسة لأصل سابق عليه، هو صدورهما عن تصور مركزي واحد، يرد العمل الأدبي إلى العالم الخارجي (المادي، المثالي) أو العالم الداخلي (النفس، الروح، الوجدان، اللاشعور) أو العلاقات الاجتماعية (وضع طبقي، موقف، رؤيا) دون الأخذ بالاعتبار أن العمل الأدبي هو كالمادة التي صنع منها نظام من الإشارات المغايرة أو المفارقة. نظام مستقل بذاته ومكتف بنفسه)⁷ إلى أن ظهرت مناهج أخرى دعت إلى دراسة العمل الأدبي بمعزل عن مرجعياته الخارجية أو الداخلية.

يتحدث عبد الملك مرتاض عن وظيفة النقد قائلا: (فليس النقد في شيء من حقيقته إلا قراءة، مجرد قراءة شخص محترف لنص أدبي ما...) ⁸ مستندا في قراءته إلى مجموعة من المعدات الفكرية، والأدوات الإجرائية، ليحاور النص أو الخطاب بلغة نقدية؛ إنها (لغة تعمل على لغة) ⁹ منطوقة كانت أم مكتوبة.

تنقسم المناهج من عدة جهات نظر إلى عدة أقسام، فباعتبار الخلفيات والمرجعيات والمنطلقات، تعود جميعها إلى نقد نظري فلسفي، وآخر تطبيقي إجرائي. وتنقسم من وجهة نظر الآليات إلى قسمين رئيسين: منهج وصفي وآخر معياري، ثم يتفرع عن كل قسم من الأقسام الرئيسة فروع وروافد، تختلف باختلاف التقنيات.

ويتمثل المنهج المعيارى فى مجموعة القواعد والقوانين التى يدرس بها الخطاب. وقد تستمد هذه المعايير من الخطاب فتسمى جمالية أو من المعطيات الخارجية، كلُّهُ حسب قصدية الناقد وغايته من تحليله لهذا الخطاب. أما المنهج الوصفى فلا يحتكم إلى معايير وقوانين، بل يهتم بالكشف عن خواص الخطاب الأدبى، وتحديد عناصره المميزة، من خلال التفسير، والتحليل، والتفكيك، والتأويل.¹⁰ وكلاهما مكمل للأخر، متعاون معه لبلوغ الأهداف والغايات.

يعرف عبد الجليل مرتاض مناهج البحث بقوله: (ويراد بمناهج البحث فى اللغة أو فقه اللغة أو اللسانيات الطرائق والميكانيزمات التى تعوّد اللغويون أن يعالجوا ويدرسوا بها الأنماط والتراكيب التى تنضوي إجمالاً تحت علم من علوم اللغة. ومما نعتقده أن منهجاً لغوياً قديماً ليس متعادلاً ولا متوازياً كلياً مع منهج لغوى جديد، إذ كلا المنهجين لهما هدف واحد، واختلاف المناهج لا يكمن إلا فى الرؤى المنهجية لمعالجة القضايا اللغوية الشائكة التى لن يحلها منهج جديد لجدته ولا منهج قديم لقدمه)¹¹ وعليه، فإن اختلاف هذه المناهج فى الرؤى والإجراءات والتقنيات لا ينفي عنها أصالتها وانتسابها إلى غيرها لأن (معظم هذه المناهج موروث بعضها عن بعض، وقائم بعضها على بعضها الآخر؛ إذ لا النبوية، ولا نزعة التحليل النفسى التى لا تتورع فى أن تتناول على تحليل النص الأدبى. كما تتناول على مرضى النفوس والعقول. ولا السيمائية، ولا الأسلوبية نفسها قادرة إحداهن على أن تزعم للناس أنها ناشئة من عدم، وأن كل أدواتها التقنية وإجراءاتها المنهجية، وأصولها المعرفية، ومصطلحاتها المجسدة لمفاهيمها: جديدة)¹² لأن المفاهيم كانت موجودة أما المصطلحات فمبتكرة.

وفى هذا النص أيضاً إشارة واضحة إلى أن المناهج غير مستقرة، متجددة، ومتغيرة وتخضع لتطور البحث ونموه، ولتبدل الظواهر اللغوية، والأفكار والرؤى الاجتماعية

والمواقف الحضارية، (فالمنهج بشكل عام في أي علم من العلوم أو ظاهرة من الظواهر الاجتماعية والإنسانية ليس حكما على زمن دون زمن، ولا على جيل دون جيل عبر التاريخ العلمي للفنون والعلوم والاختراعات... وهذا يعني من كل الوجوه أن ما نحسبه اليوم منهجا قد يصير في غد قريب أوبعيد لا شيء...) ¹³ وهذا ما جعل الألسنية تصف هذه التوجهات بلالمنهج، أمام إصرارها الدائم على تحليل الخطاب وتفكيكه وفق منطلقاتها الایدیولوجية وتوجهاتها النقدية.

التحليل

التحليل مصدر من حلل يحلل تحليلا. ومن معاني التحليل (الاستباحة) كقولهم حللت هذا على نفسي، في مقابل حرمة. والمعنى الثاني (فككت ووزعت) ¹⁴ وفي كلا الحالين صفتها سلبية سواء بالإحلال أم بالتحليل.

والتحليل في اللغة يقابله التركيب. ومن مفهوم التحليل لغويا: التفكيك والتوزيع والتشتيت والتفتيت والتنصیل، على اختلاف ما يضاف إليه، ويستقى من عموم مفهومه اللغوي ووظيفته أنه إزالة الشكل القائم على ما عليه، والرجوع بوحداته وعناصره إلى ما كانت عليه قبل البناء والتشكيل. ومن ثمة فإن في التحليل اعتداء على حقوق الغير. وهو ما وصفه عبد الله الغذامي بالغزو في قوله: (والدخول في الأدب عمل يشبه الفروسية. فهو غزو وفتح، يتجه فيه القارئ نحو النص الذي هو المضمار له، وإذا ما كتب القارئ عن تجربته هذه مع النص، فهو إذا ناقد. وما الناقد إلا قارئ متطور غزا النص وفتحه ثم أخذ يروي أحداث هذه المغامرة) ¹⁵ ورواية هذه الأحداث تختلف من قارئ لآخر، ومن ناقد لآخر، تبعا لما شاهده وتصوره داخل هذا النص.

النص

النص في عموم وصفه هو تركيب، والتركيب ينضوي تحته عدة مفاهيم منها (النص والخطاب والرسالة والمقالة..). وإذا كان النص خطابا وقعنا في مجال تحديد اللسانيات وميدانه، وإذا كان النص غير الخطاب، فينبغي أن نفرق بينهما¹⁶ لأن المراد بالنص ما كان مكتوبا، أما الخطاب فهو منطوق لغوي ينتقل من المرسل إلى المستقبل.

تحليل الخطاب

تقدم الحديث عن التحليل، وهنا نضيف إليه ما يراد منه ويختص به وهو الصوت ثم نلحق به الخطاب لاحقا. والصوت كمية فيزيائية ناتجة عن تحرك الهواء واصطدامه بما يعترضه من المعيقات. وهو أنواع أساسه الطبيعي وآخره اللغوي الإنساني الفكري، وهو الكمية الناتجة عن إعمال فكر وتدبير. ومن هذه النظرة، يكون الصوت الإنساني معبرا مسؤولا باعتباره ناتجا عن فكر وحاملا لفكرة إلى فكر، ومن هذا الموقع وهذا الواقع قالوا المرء مخبوء تحت لسانه، ومن هذا المنطلق قالوا: رفع القلم عن كل كلام صدر في غياب العقل أو تغييبه.

لقد قلنا إن من معاني التحليل الاستباحة، وإخضاع الخطاب لمختلف المناهج النقدية يعتبر استباحة للغرض والمقصد الذي بني من أجله هذا الخطاب، فبعد أن كان الدارسون والمحللون ينطلقون من الخطاب ليعبروا عن المنهج أصبح المنهج هو المتسلط والمتنمرد على الخطاب، مما يدفعنا إلى القول بأنه (خطاب يتدرب على النقد...) ¹⁷ بعد أن وجد نفسه ضحية هذا التداخل والتشابك في الرؤى والمناهج.

مستويات التحليل

في تحديد المستويات اللسانية عند الدارسين العرب اتفاق في العدد واختلاف في المعداد؛ فالعدد عندهم أربعة مستويات؛ متفقون على ثلاثة وهي الصوتي والإفرادي والتركيبى واختلفوا في الرابع فمنهم من قال هو الدلالة ومنهم من قال هو الأسلوب

ونرجح الرأي الأخير؛ لأن كل مستوى يمد ما فوقه بما عنده. من الصوامت تبني المفردة ومن المفردات تبني الجمل ومن الجمل تبني الأساليب. وفي كل مستوى تعمل جميع المناهج في البناء والتركيب وتختلف في المعاني والدلالات.

في المستوى الصوتي يصعب أن نقول يعمل الصوت بالصوت في الصوت، مع أننا نقول تشرح اللغة باللغة ويفسر القرآن بالقرآن، وما نؤكد عليه أن الصوت يحمل طاقة إيحائية فهو يوحى بكميته على الموجود ولا يحدده، لأنه هنا يعمل بكميته في نفسه بنفسه.

ويبدأ ظهور أثر الكميات الصوتية في ما فوق الوحدات الصوتية القاعدية المكونة من صائت وصامت المسماة (مقطع) أي أن وظيفة الكميات تظهر في مستوى المفردات والمفردات أقسام؛ حديثة زمانية، وذاتية كيانية، ووصفية اشتقاقية، وأداة رابطة. ثم تتوالى المفردات لتكوين الجمل، وتتلاحق الجمل لتشكيل الأساليب. والجميع تحت توجيه المنهج القويم وسلطة الحوار السليم، بين المرسل والمتلقي الذي يكون ذا رأي غالبا وحينها يسمى ناقدا أو منتقدا في كل حال.

تكافؤ المناهج

سبق الحديث على أن المناهج في عموم مفهومها هي آليات وتقنيات، تختلف باختلاف المواقف والمواقع والميول والرغبات والحاجات إن كانت غير عقلية. وتتآزر وتتعانق وتتآلف وتتلاقى بتلاقي الإمكانيات والنظريات والخلفيات أيضا. ومن هنا يمكن حصر نقاط تلاقي الآليات المنهجية عند نقطة التعليل في مستويات وتقنيات التركيب

والتحليل. وتتناق المناهج جميعها وتتكاتف وتتآلف في مجالات التحليل والتركيب وأخيرا التعليق.

الهوامش

- 1 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 115/2، تح عبد السلام هارون، مط دار الفكر لبنان.
- 2 - ابن منظور، لسان العرب، 218/4، مط صيدا بيروت.
- 3 - عمرو حسن أحمد بدران، فن الحوار والتفاوض، 15، ط1/2008، مط الدار الذهبية القاهرة.
- 4 - نفسه، 25 وما بعدها باختصار.
- 5 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 361/5. وينظر أبو البقاء الكفوي، معجم الكليات، 57/3. قال: (المنهاج الطريق الواضح) إعداد عدنان درويش ومحمد المصري، ط2/1982، مط وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق.
- 6 - يراجع تفصيل هذا عند عبد السلام محمد رشيد، لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع هجري، 25 وما بعدها، ط1/2008، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة. وأيضا يوسف خليف، منهاج البحث الأدبي 45 وما بعدها، دار غريب للنشر والتوزيع القاهرة 2004.
- 7 - موريس أبو ناضر، إشارة اللغة ودلالة الكلام، 14-15، ط1/1990، نشر وتوزيع مختارات بيروت لبنان.
- 8 - عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناسيل ابنة الجلي، 8، أبريل 2001 دار الكتاب العربي الجزائر.
- 9 - عبد السلام محمد رشيد، لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع هجري، 15.
- 10 - يراجع في هذا عبد السلام محمد رشيد، لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع هجري 18 وما بعدها.
- 11 - عبد الجليل مرتاض، في منهاج البحث اللغوي، 39 باختصار، دار القصبة للنشر 2003.
- 12 - عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، 10.
- 13 - عبد الجليل مرتاض، في منهاج البحث اللغوي، 37.
- 14 - ينظر تفصيل القول فيها عند ابن منظور، لسان العرب، 165/11 وما بعدها.

- 15 - عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحيّة، 06، ط3/1993، دار سعاد الصباح، الكويت.
- 16 - يراجع في هذا عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات دار الأديب السانبا وهران 2006.
- 17 - مصطفى خضر، النقد والخطاب، 9، منشورات إتحاد كتاب العرب دمشق 2001.